نظرية الصرفة: بين القبول والرفض

The Theory of Sarfa: Between Acceptance and Rejection

المدرس المساعد: بشرى ياس خضير

جامعة بابل. كلية العلوم الإسلامية

Assistant Lecturer: Bushra Yas Khader

University of Babylon, College of Islamic Sciences

كلمات مفتاحية: الصرفة/ الإعجاز/ التفنيد/ التحدي/ الشريف المرتضى.

Keywords: Sarfa / Inimitability / Refutation / Challenge / Al-Sharif Al-Murtada

Bushrayas13@gmail.com

الخلاصة: _

ينصبّ جهد هذا البحث حول نظرية الصَّرْفة، من حيث تعريفها وأصولها التاريخية، وأبرز القائلين بها، ثم مناقشة أدلّتهم وتفنيدها، يمكن القول إن هذه النظرية قامت على ثلاثة مرتكزات أساسية: أولها الإقرار بفصاحة القرآن الكريم وبلاغته، لكن دون التسليم ببلوغه درجة الكمال والإعجاز. وثانيها: الاعتقاد بأن معارضة القرآن والإتيان بمثله كانت في متناول فصحاء العرب وبلغائهم. وثالثها: أنّ وجه الإعجاز لا يكمن في ذات القرآن، وإنما في صرف الله تعالى العرب عن معارضته مع كونهم قادرين عليها، فجعل المانع الإلهي هو سرّ الإعجاز.

وقد كانت هذه النظرية التي أعلنها إبراهيم بن سيّار النَّظَّام بمثابة الشرارة الأولى التي دفعت العلماء والمفسرين والمتكلمين إلى التعمق في دراسة قضية الإعجاز القرآني. إذ مثّلت تحديًا علميًّا وفكريًّا استثار العقول ودفعها إلى البحث بموضوعية ومنهجية دقيقة عن حقيقة الإعجاز ووجوهه المتعددة. ومن

هنا نجد أنّ معظم ما أُلِف بعده في إعجاز القرآن جاء كردّ فعل مباشر لهذه النظرية؛ فابتداءً من نقض دعواها، ثم الانتقال إلى إثبات أنّ القرآن معجز بذاته، وما تبع ذلك من إبراز الأبعاد البلاغية والبيانية والروحية التي تميّز بها.

غير أنّ القول بالصَّرْفة يفضي منطقيًّا إلى نتيجة غير مقبولة، وهي أنّ ملكة البلاغة عند العرب تعطّلت أو ضعفت بعد وقوع التحدي، وهو ما يخالف الشواهد التاريخية والواقع اللغوي؛ إذ إنّ العرب ظلوا شعراء وخطباء بارعين، يتبارون في ميدان البلاغة والفصاحة بنفس القوة والقدرة التي عُرفوا بها قبل نزول القرآن وبعده. فقصائدهم البليغة، وخطبهم المؤثرة، وألفاظهم المنسّقة، ومعانيهم العميقة، لم يشبها ضعف ولم يطرأ عليها قصور، مما يدلّ على أن التفسير الأقرب والأصح لعجزهم عن معارضة القرآن إنما هو تفرد القرآن ذاته وسموّه وعلوّ بيانه، لا وجود مانع خارجي صرفهم عن ذلك.

Abstract:

This study examines the theory of Sarfa, its origins, key proponents, and the refutation of their arguments. The theory rests on three main premises: first, acknowledging the eloquence and rhetoric of the Qur’an, yet without admitting that it reaches the level of perfection and inimitability; second, assuming that opposing the Qur’an and producing its like was within the reach of the eloquent Arabs; and third, claiming that the source of inimitability lies not in the Qur’an itself, but in God’s act of diverting the Arabs from opposing it, despite their ability to do so—making the divine prevention the secret of its miraculous nature.

This theory, first articulated by Ibrahim ibn Sayyar al-Nazzam, served as the spark that drove scholars, exegetes, and theologians to delve deeply into the study of Qur’anic inimitability. It posed an intellectual challenge that stimulated rigorous and objective inquiry into the essence and dimensions of i‘jaz. Consequently, most subsequent works on the inimitability of the Qur’an were, in one way or another, a response to this theory: starting with refuting

its claims, then affirming that the Qur'an is intrinsically miraculous, and further highlighting its unique rhetorical, stylistic, and spiritual dimensions.

However, the notion of Sarfa leads to an untenable conclusion—namely, that the Arabs' faculty of eloquence was suspended or weakened after the challenge, which contradicts both historical evidence and linguistic reality. The Arabs continued to compose powerful poetry and deliver moving sermons with the same mastery they possessed before and after the Qur'an's revelation. Their eloquent poems, persuasive speeches, refined expressions, and profound meanings showed no sign of decline. It shows that their inability to rival the Qur'an stems from its own uniqueness and supreme eloquence, not from any external barrier.

الصرفة في اللغة:

تدل مادة (صرف) في أصلها اللغوي على معنى الرجوع والتحويل عن الشيء (صرف) "الصَّرْفُ رَدُّ الشيء عن وجهه صَرَفَه يَصْرِفُه صَرْفاً فانْصَرَفَ وصارَفَ نفْسَه عن الشيء صَرفَها عنه وقوله تعالى ﴿ثُمَّ انْصَرَفُوا﴾ أَي رَجَعوا عن المكان الذي استمعُوا فيه وقيل انْصَرَفُوا عن العمل بشيء مما سمعوا صَرَفَ الله قلوبَهم أَي أَضلَّهُم الله مُجازاةً على فعلهم وصَرفْتُ الرجل عني فانْصَرَفَ... وقوله عز وجل فما يَسْتَطِيعُون صَرْفاً ولا نَصْراً أَي ما يستطيعون أَن يَصْرِفُوا عن أَنفسهم العَذابَ... والصَّرْفُ أَن تَصْرِفَ إنساناً عن وجْهٍ يريده إلى مَصْرِفٍ غير ذلك وصَرَّفَ الشيءَ أَعْمله في غير وجه كأَنه يَصرِفُه عن وجه إلى وجه" [1]

قال ابن فارس (ت ٣٩٥هـ): "الصَّادُ وَالرَّاءُ وَالْفَاءُ مُعْظَمُ بَابِهِ يَدُلُّ عَلَى رَجْعِ الشَّيْءِ. مِنْ ذَلِكَ صَرَفْتُ الْقَوْمَ صَرْفًا وَانْصَرَفُوا، إِذَا رَجَعْتَهُمْ فَرَجَعُوا، [2] وعند ابن منظور (ت ٧١١هـ): الصَّرْفُ: رَدُّ الشَّيْءِ عَنْ وَجْهِهِ، صَرَفَه يَصْرِفُه صَرْفاً فانْصَرَفَ" [3]

وخلاصة القول في مادة صرف أنها تدور حول معنى تغير شيء عن وجهته وأصله وهو معنى ظاهر في صرف العرب بذواتهم أو هممهم عن معارضة القرآن فهم محوّلون من اتجاه الإتيان بمثل القرآن إلى وجهة أخرى وهي عدم الإتيان بمثله [4]

اصطلاحاً: صرف الله همم العرب عن معارضة القرآن وكان في مقدورهم ولكن عاقها عنها امر خارجي، فصار معجزة كسائر المعجزات و لو يصرفهم عن ذلك لجاءوا بمثله.

وقد اختلوا بالصرفة في بيان حقيقة ما قصده هؤلاء في الصرفة غير أنّه سبحانه لأجل إثبات التحدّي، حال بين فصحاء العرب وبلغائهم، لا تخرج جميع أوجه الصرف التي تحدث عنها القائلون بها أو مثلوا لها عن ثلاثة أوجه:

1- صَرْف دواعيهم وهممهم عن القيام بالمعارضة، فكلّما هموا بها وجدوا في أنفسهم صارفاً ودافعاً يصرفهم عن منازلته في حلبة المعارضة. ولم يكن ذلك لعدم قدرتهم على الانصداع لهذا الأمر، بل إنّ المقتضي فيهم كان تامّاً غير أنّ الدواعي والهمم صارت مصروفة عن الالتفات إلى هذا الأمر، بصرف الله سبحانه قلوبهم عنه، ولولا ذلك لأتوا بمثله.

2- سَلْبُهُمْ سبحانه العلومَ الّتي كانت العرب مالكة لها، ومتجهزة بها، وكانت كافية في مقابلة القرآن. ولولا هذا السلب وكان وضع العرب حال البعثة كوضعهم بعدهالأتوا بمثله.

3- أَنَّهم كانوا قادرين على المعارضة، ومجهزين بالعلوم الوافية بها، مع توفّر دواعي المعارضة وعدم صرف هَمِهم عنها، ولم يمنعهم عنها إلاَّ إلجاؤه تعالى، فتقهقروا في حلبة المعارضة لغلبة القوة الإلهية على قواهم. وهذا نظير من يريد أن يتحرّك نحو المطلوب، فيحال بينه وبين مقصده بقاهر يصدُّه عن التقدم [5].

ولهذا نقول إن الصرفة بكل صورها تسلب الأعجاز عن القرآن الكريم فأصحاب نظرية الصرفة يرون أنّ العرب كانوا قادرين على معارضة القرآن، ومؤهَّلين بالعلوم والملكات اللازمة لذلك، مع توافر الدواعي التي تحفّزهم على الإتيان بمثله، ولم يكن هناك ما يصدّهم عن ذلك إلا تدخل الله تعالى بصرف هممهم وإلجائهم إلى التراجع، فغُلِبت قوّتهم أمام القوة الإلهية القاهرة. ويشبّهون ذلك بمن أراد أن يسعى إلى غايته، غير أنّ قوّةً قاهرة حالت بينه وبين مقصده، فمنعته من التقدم رغم استعداده وقدرته.

القائلون بنظرية الصَّرْفة :_

اولاً: إبراهيم بن سيّار النَّظَّام (ت231هـ): لقد تحدث النَّظّام عن القرآن الكريم، وذهب الى القول بأن إعجاز القرآن كان بالصرفة، أي أن الله سبحانه قد صرف بلغاء العرب عن معارضة القرآن، مع قدرتهم على تلك المعارضة؛ لأنهم كانوا بلغاء بطبيعتهم فصحاء بسليقتهم، أو أنه صرفهم وكان ذلك مقدوراً لهم، كما عبَّر عن ذلك بعضهم [6].

قال النَّظّام: «إنّ الله تعالى ما أنزل القرآن ليكون حجة على النبوة، بل هو كسائر الكتب المنزلة لبيان الأحكام من الحلال والحرام، والعرب إنما لم يعارضوه؛ لأن الله تعالى صرفهم عن ذلك، وسلب علومهم به» وهذا القول نسبه الرازي للنظّام[7]

وبعض الباحثين المحدثين يحاول أن يتعذر للنظّام مفسراً الصرفة بغير التفسير الذي اشتهر عند العلماء، فهو يرى أن الصرفة التي قال بها النَّظّام لا تعني قدرة العرب على الإتيان بالقرآن، وإنما تعني انصرافهم عن ذلك حينما نظروا في القرآن، ونظروا في أنفسهم وامكاناتهم، فوجدوا أنهم لا يمكنهم معارضته، فانصرفوا عن ذلك، فهو انصراف لا صرفه [8]

إنّ هذا التعليل الذي ذكره الباحث، لا يمكن أن نوافق عليه؛ ذلك لأن الجاحظ نفسه، وهو من تلاميذ النَّظَّام الذين كانوا يجلّونه كل الإجلال، قد ردّ عليه في كتابه نظم القرآن (فند قول النَّظَّام)، والجاحظ أقدر على فهم أستاذه ممن جاءوا بعده [9].

فهناك فرق بين مفهومي النَّظَّام، والجاحظ للصرفة، فالنظام: يرى قدرة المنشئين على أن ينظموا مثل القرآن، والإعجاز في صرف الله لهم عن هذا الصنيع. أما الجاحظ: فلم يستعمل الصرفة بمفهومها النظامي الذي سبق أن أنكره عليه، وإنما استعملها بمفهوم آخر، لا يتنافى والقول بإعجاز القرآن بالنظم. فانصراف العرب عن معارضة القرآن، إنما وقع بعد أن تحداهم الرسول [10].

ثانياً: أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (ت 386 هـ): "أمّا الصَّرْفة فهي صرف الهمم عن المعارضة، وعلى ذلك كان يعتمد بعض أهل العلم في أنّ القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن المعارضة، وذلك خارج عن العادة، كخروج سائر المعجزات الّتي دلّت على النبوة، وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز الّتي يظهر منها للعقول [11]"

ثالثاً: الشيخ المفيد (ت / 413 هـ) قال في جهة إعجاز القرآن: "إنّ جهة ذلك هو الصرف من الله تعالى لأهل الفصاحة واللسان عن معارضة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمثله في النظام عند تحدّيه لهم، وجعل انصرافهم عن الإتيان بمثله ـ وإن كان في مقدورهم دليلاً على نبوته، واللُّطف من الله تعالى مستمر في الصرف عنه إلى آخر الزمان، وهذا أوضح برهان في الإعجاز، وأعجب بيان وهو مذهب النظّام، وخالف فيه جمهور أهل الاعتزال [12]"

رابعاً: علي بن الحسين المعروف بالشريف المرتضى (ت/355هـ) نقل عنه الطوسي قوله: "إنّ تعالى سلب العرب العلوم الّتي كانت تتأتّى منهم بها الفصاحة الّتي هي مثل القرآن متى راموا المعارضة، ولو لم يسلبهم ذلك لكان يتأتى منهم" [13].

خامساً: الشيخ الطوسي، يعد الطوسي من التلاميذ البارزين للمرتضى، وبطبيعة الحال يكون هناك نوع اهتمام بالتراث الذي يتركه الاستاذ من طرف التلامذة، فكانت هناك عناية واضحة وملموسة من الطوسي تجاه فكر استاذه المرتضى تجلى ذلك من خلال الشرح الذي وصلنا للطوسي على متن مهم آنذاك بل كان محط جملة من تلامذة المرتضى، وهو كتاب جمل العلم والعمل، حيث شرح الطوسي القسم الاول (أي القسم النظري) وسماه بـ (تمهيد الاصول)، وكان من رأي الطوسي في شرحه هذا هو أنه انتصر لها ودافع عنها كما ذهب الى ذلك المرتضى تماما. قائلاً بالصرفة، ولكنه عدل عنه بعد ذلك، كما يعترف به هو نفسه في كتابه "الإقتصاد"، قال: "وأقوى الأقوال عندي قول من قال إنّما كان معجزاً خارقاً للعادة لاختصاصه بالفصاحة المفرطة في هذا النظم المخصوص، دون الفصاحة بإنفرادها، ودون النظم بانفراده، ودون الصرفة. وإن كُنْتُ نصرتُ في شرح الجمل القولَ بالصَّرْفة على ما كان يذهب إليه المرتضى ـ رحمه الله ـ ، من حيث شرحت كتابه فلم يحسن خلاف مذهبه" [14]. (نصير الدين الطوسي قال بها في كتابه (تمهيد الأصول في علم الكلام) وهو شرح لكتاب (جمل العلم والعمل) للشريف المرتضى ولكنه تراجع عن القول بها صراحة في كتاب الاقتصاد)

فمعنى الإعجاز بالصرفة أن الله تعالى صرف العرب عن معارضته فلم يقدروا على ذلك، ولولا الصرفة لما أعجزهم القرآن، ولما أعجزهم أن يأتوا بمثله، القائلون بمذهب الصَّرْفة، فإنهم يعترفون بفصاحة القرآن وبلاغته، وروعة نظمه وبداعة أُسلوبه، لكنهم لا يرونه على حدّ الإعجاز، بل يقولون: ليس الإتيان بمثله خارجاً عن طوق القدرة البشرية، فمعارضة القرآن والإتيان بمثله ليس محالاً عادياً حتى يحتاج فيه وراء القدرة العادية إلى قدرة خارقة.

دلائل القول بالصَّرْفَةِ ونفيها:

القائلين بنظرية الصرفة استدلوا ببعض الآيات القرآنية لتأييد ما ذهبوا إليه، حيث ورد في الآية 31 من سورة الأنفال على لسان المشركين ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا ۙ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ فهذا يدل على أن آيات القرآن عندهم ليس لها إعجاز ذاتي، بل الله صرفهم عنها[15].

تفنيد نظرية الصرفة

انتقد القاضي عبد الجبار أصحابه القائلين بالصرفة أشدّ الانتقاد معتبرا هذه النظرية تطعن في القرآن الكريم من حيث بلاغته المعجزة ومن حيث ثبوته أو ثبوت بعض آياته ثم من حيث مزيته وخصيته يقول معددا أوجه انتقاده لنظرية الصرفة:

أولا: - لو كانوا ممنوعين من الإتيان بكلام فصيح، أو قول بليغ، لكان ذلك لا يختص بكلام دون كلام، وأنه لو حصل ذلك في ألسنتهم، لما أمكنهم الكلام المعتاد، ولكن القوم ظلوا يتكلمون، ويأتون بالقول الفني الممتاز، ولم ينحدر مستوى بيانهم، أو يهبط، ولكنه كان - على علوه -، لا يرقى الى مستوى القرآن.

ثانيا: - ولو ثبت هذا المنع، لكان في حد ذاته هو المعجز، وليس القرآن.

ثالثا: - ولو ثبت هذا المنع بأية صورة من صوره، لبطل بعض القرآن، ولما كان صحيحا قوله تعالى: (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) ... [16].

إنّ نظرية الصرفة، نظرية قاصرة وسقيمة من جهات:

أوّلاً: إجماع الأمة قبل ظهور القول بالصَّرْفة على أن إعجاز القرآن ذاتي ... وقد حكى القرطبي الإجماع في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن)، فقال بعد أن ذكر قول القائلين بالصرفة: " وهذا فاسد، لأن إجماع الأمة قبل حدوث المخالف: أن القرآن هو المعجز، فلو قلنا: أن المنع و الصَّرْفة هو المعجز، لخرج القرآن عن أن يكون معجزًا، وذلك خلاف الإجماع، وإن كان كذلك، علم أن نفس القرآن هو المعجز؛ لأن فصاحته وبلاغته أمر خارق للعادة، إذ لم يوجد كلام قط على هذا الوجه، فلما لم يكن ذلك الكلام مألوفًا معتادًا منهم، دل على أن المنع والصَّرْفة لم يكن معجزا " [17] .

ثانياً: لو كان القرآن من حيث الفصاحة والبلاغة وروعة النظم وبداعة الأسلوب، غير بالغ حدّ الإعجاز، وكان العرب قبل البعثة متمكنين من إلقاء الخطب والأشعار على هذا النمط من الكلام، فيجب أن ينتشر ما يضاهي القرآن في البلاغة، والفصاحة بين أوساطهم وأندية شعرهم وأدبهم، ويكون مثله متوفراً بينهم، فعندئذ نسأل: أين هذه الخطّب والجمَل المضاهية للقرآن الكريم، الرائجة بينهم؟ وهل يمكن لأصحاب مذهب الصرفة إراءة نماذج منها؟! ونحن مع ما بذلنا من الفحص والتتبع عنها في مظانها من مجاميع الكتب الأدبية، لم نجد حتى النزر اليسير منها.

إن القول بالصرفة لا يجتمع مع التحدي إذ في ذلك نسبة العبث الى الله تعالى ، فهو كقول الشاعر:

أَلْقَاهُ فيِ اليَمِّ مَكْتُوفاً وَقَالَ لهُ إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَبْتَلَّ بِالْمَاء [18].

ويقول أبو القاسم الخوئي (1413هـ) لو كان إعجاز القرآن بالصرفة، لوجد في كلام العرب السابقين مثله، قبل أن يتحدى النبي البشر، ويطالبهم بالإتيان بمثل القرآن، ولو وجد ذلك لنقل وتواتر، لكثرة

الدواعي إلى نقله، وإذ لم يوجد ولم ينقل، كشف ذلك عن كون القرآن بنفسه إعجازا إلهيا، خارجا عن طاقة البشر [19].

ثالثاً: "لو كان الوجه في إعجازه هو الصرفة كما زعموا، لما كانوا مستعظمين لفصاحة القرآن، فلمّا ظهر منهم التعجّب لبلاغته وحسن فصاحته، كما أثر عن الوليد بن المغيرة حيث قال: "إنّ أعلاه لمورق، وإنّ أسفله لَمُغْدِق، وإنّ له لطلاوة، وإنّ عليه لحلاوة"، فإنّ المعلوم من حال كل بليغ وفصيح سمع القرآن يتلى عليه فإنّه يدهش عقله ويحيّر لبّه، وما ذاك إلاّ لما قرع مسامعهم من لطيف التأليف وحسن موانع التصريف في كل موعظة، وحكاية كل قصة، فلو كان كما زعموه من الصرفة، لكان العُجب من غير ذلك، ولهذا فإنّ نبيّاً لو قال: إنّ معجزتي أن أضع هذه الرمانة في كفي. وأنتم لا تقدرون على ذلك، لم يكن تعجّب القوم من وضع الرمانة في كفه، بل كان من اجل تعذّره عليهم، مع أنّه كان مألوفاً لهم، ومقدوراً عليه من جهتهم. فلو كان كما زعمه أهل الصرفة، لم يكن للتعجّب من فصاحته وجه. فلمّا علمنا بالضرورة إعجابهم بالبلاغة، دلّ على فساد هذه المقالة" [20]، فلو كان العرب قبل البعثة قادرين على الإتيان بكلام يشبه القرآن ويضاهيه، فلماذا اندهش الوليد بن المغيرة فلو كانت فصاحة القرآن وبلاغته أو نظمه وأُسلوبه من حيث العذوبة والأناقة على نمط كلام الآخرين من فصحاء العرب وبلغائهم، فلم اهتزوا وتأثّروا بسماع آية أو آيات منه

رابعاً: لو كان العجز بالصَّرْفَةِ لكان مقتضى الحكمة إنزال القرآن في مستوى بلاغي قريب المتناول- لا في الدرجة القصوى من البلاغة والفصاحة - لتظهر عظمة المعجزة في المنع من مثله والصرف عنه. وهذا يخالف ما ورد في القرآن من أوصاف له تشيد بعظمة بيانه وسموه، فهو الكتاب المبين؛ والقرآن المجيد؛ وفيه الآيات البينات، وهو النور، والنور المبين؛ والكتاب المنير؛ وفيه الهدى والنور وشفاء لما في الصدور .... [21].

ومن ثَمّ، فإنّ الجدل الذي أثارته نظرية الصَّرْفة لم يكن سلبيًّا خالصًا، بل أسهم ـ من وجه آخر ـ في إثراء علم الإعجاز وإبراز وجوهه المختلفة، إذ دفعت العلماء إلى البحث والاستقصاء والتأمل في أسرار البيان القرآني، مما جعل التراث الإسلامي زاخرا بالمباحث العميقة في البلاغة والنظم والتأثير النفسي والمعنوي للقرآن الكريم. وبذلك يمكن القول: إنّ نظرية الصَّرْفة، وإن كانت في ذاتها محل رفض وانتقاد، إلا أنّها شكّلت منعطفا مهمًّا في تاريخ علم الإعجاز، إذ كانت منطلقا لجهود علمية كبرى انتهت إلى تقرير أنّ القرآن معجز بذاته، ببلاغته الفريدة، ونظمه العجيب، وتأثيره الخارق في النفوس والعقول.

خامساً: الآيات الدالة على التحدي والإعجاز تحمل في طياتها دلالة واضحة على مزية القرآن وأنّه فوق قدرة البشر فإنّ الخطاب القرآني لم يوقع التحدي إلاّ بعد معارضة العرب ورفضهم لدعوته وأحكامه ومعانيه والقول بالصرفة مناقض ومخالف لذلك وممن قال بفساد هذا القول: بدر الدين الزكشي فيقول في

تفسير قوله تعالى : ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء ٨٨]

"فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى عَجْزِهِمْ مَعَ بَقَاءِ قُدْرَتِهِمْ وَلَوْ سُلِبُوا الْقُدْرَةَ لَمْ يَبْقَ فَائِدَةٌ لِاجْتِمَاعِهِمْ لِمَنْزِلَتِهِ مَنْزِلَةَ اجْتِمَاعِ الْمَوْتَى وَلَيْسَ عَجْزُ الْمَوْتَى بِكَبِيرٍ يُحْتَفَلُ بِذِكْرِهِ هَذَا مَعَ أَنَّ الْإِجْمَاعَ مُنْعَقِدٌ عَلَى إِضَافَةِ الْإِعْجَازِ إِلَى الْقُرْآنِ فَكَيْفَ يَكُونُ مُعْجِزًا غَيْرُهُ وَلَيْسَ فِيهِ صِفَةُ إِعْجَازٍ بَلِ الْمُعْجِزُ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى حَيْثُ سَلَبَهُمْ قُدْرَتَهُمْ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ يَلْزَمُ مِنَ الْقَوْلِ بِالصَّرْفَةِ فَسَادٌ آخَرُ وَهُوَ زَوَالُ الْإِعْجَازِ بِزَوَالِ زَمَانِ التَّحَدِّي وَخُلُوُّ الْقُرْآنِ مِنَ الْإِعْجَازِ وَفِي ذَلِكَ خَرْقٌ لِإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ فَإِنَّهُمْ أَجْمَعُوا عَلَى بَقَاءِ مُعْجِزَةِ الرَّسُولِ الْعُظْمَى وَلَا مُعْجِزَةَ لَهُ بَاقِيَةٌ سِوَى الْقُرْآنِ وَخُلُوُّهُ مِنَ الْإِعْجَازِ يُبْطِلُ كَوْنَهُ مُعْجِزَةً القرآن [22] .

سادساً: القول بالصرفة يقتضي أنّ الإعجاز فيها وفي قدرة الله الخارقة لا في القرآن الكريم الذي يفقد بذلك كلّ فضيلة وتميز على غيره من الكلام وهذا مخالف لنصوص الكتاب والسنة التي تثني على القرآن الكريم وتؤكد على خصوصيته وتميزه عن سائر الكلام بما في ذلك سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم والحديث القدسي الشريف [23].

سابعاً: وإذا كان أمر القرآن لم يحركهم ولم يسترع انتباههم فلماذا كانت جميع هذه المهاترات والمصاولات مع أن خصمهم الذي يزعمون خصومته قد قصر لهم المسافة ودلهم على أن سبيلهم إلى إسكاته هو أن يأتوا بمثل أقصر سورة مما جاءهم به أليس ذلك دليلا ماديا على أن قعودهم عن معارضة القرآن ليست إلا بسبب شعورهم بعجزهم عن هذه المعارضة واقتناعهم بإعجاز القرآن وإلا فلماذا آثروا الملاكمة على المكالمة والمقارعة بالسيوف على المعارضة بالحروف؟!وقد يظن جاهل أن حماستهم في خصومتهم هذه ليس مبعثها شعورهم بقوة القرآن وإعجازه وإنما مبعثها بغضهم لمحمد وأصحابه ولكن هذا الظن يكذبه ما هو مقرر تاريخيا وثابت ثبوتا قطعيا من أن محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه لم تكن بينهم وبين هؤلاء عداوة قبل نزول القرآن بل كانوا أمة واحدة وقبيلة واحدة وكان الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من أحب الناس إليهم لدماثه أخلاقهم وللرحم الماسة التي بينهم [24].

ثامناً: لو كان العجز بالصرفة لكان مقتضى الحكمة إنزال القرآن في مستوى بلاغي

قريب المتناول- لا في الدرجة القصوى من البلاغة والفصاحة – لتظهر عظمة المعجزة في المنع من مثله والصرف عنه، وهذا يخالف ما ورد في القرآن من أوصاف له تشيد بعظمة بيانه وسموه ، فهو الكتاب المبين ؛ والقرآن المجيد ؛ وفيه الآيات البينات ، وهو النور ، والنور المبين ؛ والكتاب المنير ؛ وفيه الهدى والنور وشفاء لما في الصدور

والواضح من الآية أن الإعجاز ثابت ولو اجتمع الإنس والجن وتعاونوا على ذلك، لأن الإعجاز كامن في القرآن نفسه، ولا يتوقف الإعجاز في أي عصر، ومبدأ الإعجاز بالصرفة هو إلغاء للإعجاز، وإلغاء للخصوصية القرآنية، واعتبار الإعجاز أمرا خارجيا.

هذا يوضّح أن القرآن كان اختباراً حقيقياً لقدرة العرب على البلاغة، وأن صمتهم عن معارضته لم يكن خوفا شخصيا من النبي أو بغضا له، بل اعترافًا منهم بتفرده وإعجازه. أي محاولة لمعاداته كانت سطحية أو عابرة، ولم تلمس جوهر تحديه البلاغي.

الهوامش:

1. كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، 110/7.
2. في معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، 343/3.
3. لسان العرب، ابن منظور، 191/9.
4. البرهان في علوم القرآن، الزركشي، 388/3.
5. ظ: الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة بن علي، 3/ 218.
6. ظ: مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه، عدنان محمد زرزور، 158.
7. نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، فخر الدين الرازي، 26
8. ظ: إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة ، د. منير سلمان، 65.
9. ظ: إعجاز القرآن الكريم، د. فضل حسن عباس، 37.
10. ظ: الصرفة دلالتها لدى القائلين بها والمعارضين لها، سامي عطا الله حسن، 13.
11. النكت في إعجاز القرآن، أبو الحسن الرماني، 110.
12. أوائل المقالات في المذاهب والمختارات، محمّد بن سعيد بن جبير ،31.
13. تمهيد الأصول في علم الكلام، الطوسي (ت/ 460 هـ)، 331.
14. الاقتصاد الهادي إلى طريق الرشاد، الطوسيي، 1/ 172.
15. البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، كمال الدين عبد الواحد الزملكاني، 53.
16. ظ: جَنَى الخُرْفَةِ فِي إبْطَالِ القَولِ بِالصَّرْفَةِ، عرفة بن طنطاوي ، ، 104.
17. الجامع لحكام القرآن، القرطبي،54/1.
18. الإلهيات، جعفر السبحاني، 337/3.

19. البيان في تفسير القرآن، الخوئي، 83.

20. الطراز،393 -394.

21. جَنَى الخُرْفَةِ فِي إبْطَالِ القَولِ بِالصَّرْفَةِ، 113.

22. البرهان في علوم القرآن،2/ 94.

23. ظ: اعجاز القرآن، أبو بكر الباقلاني، 3.

24. مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزُّرْقاني، 2/ 417.

المصادر:

1. إعجاز القرآن الكريم، د. فضل حسن عباس، تح: عبد العزيز الخياط، جامعة القدس المفتوحة، عمان، الطبعة الثانية، 1997م.
2. إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة، د. منير سلمان، منشأة معارف الاسكندرية، مصر، 1977م.
3. إعجاز القرآن للباقلاني، أبو بكر الباقلاني محمد بن الطيب (ت ٤٠٣هـ)، تح: السيد أحمد صقر، دار المعارف – مصر، الطبعة: الخامسة، ١٩٩٧م.
4. الاقتصاد الهادي إلى طريق الرشاد، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت/ 460 هـ)، منشورات مكتبة جامع چهلستون - طهران.
5. الإلهيات، جعفر السبحاني، مؤسسة الامام الصادق عليه السلام، الطبعة: الأولى 1989م.
6. أوائل المقالات في المذاهب والمختارات، محمّد بن محمّد بن النعمان بن عبد السلام بن جابر بن النعمان بن سعيد بن جبير البغداديّ (ت/ 314هـ)، تح: ابراهيم الانصاري، المؤتمر العالمي لإلفية الشيخ المفيد، الطبعة الاولى، 1413هـ.
7. البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، كمال الدين عبد الواحد الزملكاني، بغداد، مطبعة العاني، ط1، 1394هـ.
8. البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت ٧٩٤هـ، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة: الأولى، ١٩٥٧ م، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، بيروت، لبنان.

9. بيان إعجاز القرآن مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي (ت ٣٨٨هـ) تح: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، الطبعة: الثالثة، ١٩٧٦م.
10. البيان في تفسير القرآن، ابو القاسم الخوئي، الطبعة الثانية، مطبعة الاداب ، النجف الاشرف، ١٩٦٦م.
11. تمهيد الأصول في علم الكلام، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت/ 460 هـ)، تح: المركز التخصصي لعلم الكلام الاسلامي التابع لمؤسسة الصادق (عليه السلام)، قم، 1394هـ.
12. الجامع لحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي: (ت: ٦٧١ هـ) دار الكتب العلمية-بيروت ١٩٩٣ م-الطلعة الأولى.
13. جَنَى الخُرْفَةِ فِي إبْطَالِ القَولِ بِالصَّرْفَةِ، عرفة بن طنطاوي، بحث منشور في: مجلة البحوث الإسلامية العدد ٦٠، صفر ١٤٤٢ هـ، ويرأس تحريرها أ د عبد الفتاح محمود إدريس، أستاذ بقسم الفقه المقارن بكلية الشريعة والقانون جامعة الأزهر.
14. الصرفة دلالتها لدى القائلين بها والمعارضين لها، سامي عطا الله حسن، جامعة آل البيت عليهم السلام.الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ.
15. الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلويّ الطالبي الملقب بالمؤيد بالله (ت ٧٤٥هـ)، المكتبة العنصرية – بيروت.
16. كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت ١٧٠هـ) تح: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.
17. لسان العرب، محمد بن مكرم جمال الدين ابن منظور (ت ٧١١هـ)، لليازجي وجماعة من اللغويين، دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ.
18. مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه، عدنان محمد زرزور، دار الشاميه - دمشق، الطبعة: الثانية،١٩٩٨ م.
19. معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت ٣٩٥هـ)، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٩٧٩م.
20. النكت في إعجاز القرآن، علي بن عيسى بن علي بن عبد الله، أبو الحسن الرماني المعتزلي (ت ٣٨٤هـ) تح: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر الطبعة: الثالثة، ١٩٧٦م.
21. نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، فخر الدين الرازي (ت/ 606هـ)، تح: نصر الله حاجي مفتي، دار صادر، بيروت، الطبعة الاولى، 2004م.

22. مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزُّرْقاني (ت 1376هـ)، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه الطبعة: الطبعة الثالثة.

References:

1. The Inimitability of the Holy Qur’an, Fadl Hasan Abbas, ed. Abdul Aziz Al-Khayyat, Al-Quds Open University, Amman, 2nd edition, 1997.
2. The Inimitability of the Qur’an between the Mu‘tazilites and the Ash‘arites, Munir Salman, Manshat Ma‘arif, Alexandria, Egypt, 1977.
3. I‘jaz al-Qur’an (The Inimitability of the Qur’an), Abu Bakr al-Baqillani (d. 403 AH), ed. Sayyid Ahmad Saqr, Dar al-Ma‘arif, Egypt, 5th edition, 1997.
4. Al-Iqtisad al-Hadi ila Tariq al-Rashad, Abu Ja‘far Muhammad ibn al-Hasan al-Tusi (d. 460 AH), Chihleston Mosque Library Publications, Tehran.
5. Ilahiyyat (Theology), Ja‘far al-Subhani, Imam al-Sadiq Foundation, 1st edition, 1989.
6. Awail al-Maqalat fi al-Madhahib wa al-Mukhtarat, Muhammad ibn Muhammad ibn al-Nu‘man (al-Mufid) (d. 413 AH), ed. Ibrahim al-Ansari, World Congress of al-Mufid’s Millennium, 1st edition, 1413 AH.
7. Al-Burhan al-Kashif ‘an I‘jaz al-Qur’an, Kamal al-Din ‘Abd al-Wahid al-Zamalkani, Baghdad, al-‘Ani Press, 1st edition, 1394 AH.

8. Al-Burhan fi ‘Ulum al-Qur’an, Badr al-Din al-Zarkashi (d. 794 AH), ed. Muhammad Abu al-Fadl Ibrahim, 1st edition, 1957, Dar Ihya’ al-Kutub al-‘Arabiyya, ‘Isa al-Babi al-Halabi, Beirut.
9. Bayan I‘jaz al-Qur’an, included in Three Treatises on the Inimitability of the Qur’an, Abu Sulayman al-Khattabi (d. 388 AH), ed. Muhammad Khalafallah and Muhammad Zaghlul Sallam, Dar al-Ma‘arif, Egypt, 3rd edition, 1976.
10. Al-Bayan fi Tafsir al-Qur’an, Abu al-Qasim al-Khoei, 2nd edition, al-Adab Press, Najaf al-Ashraf, 1966.
11. Tamheed al-Usul fi ‘Ilm al-Kalam, Abu Ja‘far Muhammad ibn al-Hasan al-Tusi (d. 460 AH), ed. Islamic Theology Specialized Center (Imam al-Sadiq Foundation), Qom, 1394 AH.
12. Al-Jami‘ li-Ahkam al-Qur’an, Abu ‘Abd Allah Muhammad ibn Ahmad al-Qurtubi (d. 671 AH), Dar al-Kutub al-‘Ilmiyya, Beirut, 1st edition, 1993.
13. Jana al-Khurfa fi Ibtal al-Qawl bi al-Sarfa, ‘Arafa ibn Tantawi, published in Journal of Islamic Research, no. 60, Safar 1442 AH, under the editorship of Prof. Dr. Abdul Fattah Mahmoud Idris, Al-Azhar University.
14. Al-Sarfa: Its Implications According to Its Proponents and Opponents, Sami ‘Ata Allah Hasan, Al al-Bayt University, 1st edition, 1423 AH.
15. Al-Tiraz li-Asrar al-Balagha wa ‘Ulum Haqa’iq al-I‘jaz, Yahya ibn Hamza al-‘Alawi al-Talibi (d. 745 AH), al-‘Ansariyya Library, Beirut.
16. Kitab al-‘Ayn, al-Khalil ibn Ahmad al-Farahidi (d. 170 AH), ed. Mahdi al-Makhzumi and Ibrahim al-Samarra’i, Dar wa Maktabat al-Hilal.
17. Lisan al-‘Arab, Ibn Manzur (d. 711 AH), ed. al-Yaziji and a group of linguists, Dar Sadir, Beirut, 3rd edition, 1414 AH.
18. Introduction to Qur’anic Exegesis and Sciences, Adnan Muhammad Zarzur, Dar al-Shamiyya, Damascus, 2nd edition, 1998.

19. Mu‘jam Maqayis al-Lugha, Ibn Faris (d. 395 AH), ed. Abdul Salam Muhammad Harun, Dar al-Fikr, 1979.
20. Al-Nukat fi I‘jaz al-Qur’an, al-Rummani (d. 384 AH), ed. Muhammad Khalafallah and Muhammad Zaghlul Sallam, Dar al-Ma‘arif, Egypt, 3rd edition, 1976.
21. Nihayat al-Ijaz fi Dirayat al-I‘jaz, Fakhr al-Din al-Razi (d. 606 AH), ed. Nasr Allah Haji Mufti, Dar Sadir, Beirut, 1st edition, 2004.